

تقوم وظيفة المقامة على فعل القيام والقوم (أن تقوم فتقول) فهي - إذن - تحمل سمات من العرض والتمثيل والأداء الصوتي. وهذا يعني أن المبدع (أو المنشئ) لا يقرأ ولكنه يقول. إنه لا يقرأ من نص مكتوب، ولكنه إذا ما قام وقال فإنه ينطلق من ذاكرة، إما عن حفظ أو عن ارتجال. فهي - لذا - فنّ يحمل بعض خصائص العرض المسرحي التمثيلي. ولذا فإنها تتجه إلى الإثارة والمفاجأة والمفارقة والسخرية مستخدمة لذلك أساليب اللغة وحيلها بالإيقاع والسرد.

يحدث ذلك في زمن أدبي عربي اشتهر وعرف بأنه زمن البلاغة والبديع. وهذا هو المزاج الثقافي للعصر. وهنا سوف نجد علاقة عضوية ما بين البديع كفنّ بلاغي مثير في تلك الفترة وما بين لقب الهمداني في كونه بديع الزمان في زمان البديع.

هذه علاقة عضوية في أن يكون ملقباً بلقب بديع الزمان، ويكون عصره زمان البديع. مما يجعل الهمداني علامة على عصره وعنواناً له وعليه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن هذه العلاقة تقف وراء طبيعة تكوين المقامة في إبداعيتها وبديعيتها، سرداً وإيقاعاً.

لقد ابتكرها بديع الزمان، حيث جعلها جنساً أدبياً قائماً بذاته. ولذا فقد اختلف، أو لعله اختلف فابتكر. ومزية الاختلاف هذه لا تقف عند إبداعه لهذا الفن، ولكنها تتحرك معه داخل المقامات، حيث نجده يختلف عن نفسه ويقدم مقامة لا تشبه ما صار معهوداً عن هذا الفن. إنه يبتكر داخل الابتكار ويختلف من داخل الاختلاف. وهذه هي ميزة المقامة البشرية.

وأول ما نلاحظه على هذه المقامة هو تراجع السجع فيها، حتى